مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (2)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (2) 2011

الإبيستمولوجيا التكوينية عند جان بياجيه

الدكتور غسان بركات*

(تاريخ الإيداع 16 / 5 / 2011. قبل للنشر في 7 / 6 / 2011)

□ ملخّص □

إن أهم ما يميز الإبيستمولوجيا المعاصرة كما يقول الفيلسوف الفرنسي ((روبير بلانشيه)) هو الانتقال التدريجي لمشكلاتها من أيدي الفلاسفة إلى أيدي العلماء المختصين بما فيهم علماء النفس؛ إذ حاول عالم النفس الإبيستمولوجي السويسري المعروف ((جان بياجيه)) إقامة علاقة أساسية ومميزة بين الإبيستمولوجيا وعلم النفس أسهمت في نشوء ما يسمى ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) التي أسسها بياجيه على علم النفس . وخاصة علم نفس الطفولة بكيفية خاصة والتي تهتم بدراسة ((المعرفة)) دراسة سيكولوجية علمية بوصفها عملية انتقال من حالة دنيا إلى حالة عليا، مستخدمة في ذلك منهجاً مزدوجاً في المعرفة :

_ منهج التحليل المنطقي من جهة، والمنهج التحليلي التاريخي ـ النقدي من جهة ثانية.

الكلمات المفتاحية: الإبيستمولوجيا _ المنهج التكويني _ التحليل المنطقي.

* أستاذ مساعد – قسم أصول التربية – كلية التربية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (33) العدد (2)2011
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (33) No. (2) 2011

Formative when Jean Piaget alabistmologia

Dr. Ghassan Barakat*

(Received 16 / 5 / 2011. Accepted 7 / 6 / 2011)

□ ABSTRACT □

The most important characteristic of contemporary Alibistamologia says French philosopher ((Robert Blanchet)) is a gradual transition to the problems of the hands of philosophers, scientists into the hands of professionals, including psychologists. He tried psychologist Alibistamologi Swiss known ((Jean Piaget)) to establish a fundamental relationship and distinction between Alibistamologia and psychology have contributed to the emergence of the so-called ((Alibistamologia formative)), which was founded by Piaget on psychology, especially child psychology how special that deals with the study ((defined)) studying the psychology of science as a process of transition from lower to higher status, using the double approach of knowledge: A logical analysis and historical monetary analytic methodology.

Keywords: Alibistamologia _ curriculum formative _ analytics

***Associate Professor, Department Of Fundamentals Education, Faculty Education, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

لقد حاول عالم النفس الإبيستمولوجي السويسري المعاصر ((جان بياجيه)) إقامة علاقة مهمة ومميزة بين الإبيستمولوجيا وعلم النفس، وخاصة علم نفس الطفولة عندما ربط الدراسات الإبيستمولوجية بنوع آخر من علم النفس هو ((علم النفس التكويني)) الذي يقوم بدراسة المعرفة البشرية دراسة سيكولوجية علمية بوصفها عملية انتقال من حالة دنيا إلى حالة عليا؛ لذلك فإن جان بياجيه لم يكتف بالقول: إن التحليل الإبيستمولوجي للمعرفة العلمية يمكن أن يستفيد من علم النفس التكويني، بل إن اعتماد التحليل الإبيستمولوجي على المنهج التكويني المتبع في هذا الفرع من فروع علم النفس من شأنه أن يجعل من الإبيستمولوجيا لا تحليلاً فلسفياً يستفيد من العلوم الإنسانية، بل يجعلها علماً إنسانياً يمكن أن يضاف إلى قائمة العلوم الإنسانية الأخرى وذلك وفقاً للشروط ذاتها التي تم بفضلها للعلوم الإنسانية الأخرى الارتقاء إلى مرتبة علمية متطورة. وهذا العلم الجديد هو الذي يدعوه جان بياجيه بـ ((الإبيستمولوجيا التكوينية))[1]

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه من البحوث التي ترصد اهتمام علماء النفس وعلى رأسهم جان بياجيه بدراسة العلاقة المهمة بين ((المعرفة)) والنمو السيكولوجي للمبادئ والمفاهيم الفكرية ((كمبدأ الهوية، وعدم التناقض، مبدأ السببية، مفهوم العدد، مفهوم المكان والزمان... الخ)) وكيف مهدت الدراسات الإبيستمولوجية الجديدة لقيام نوع جديد من ((نظرية المعرفة)) هو ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) النبي تهتم بدراسة ((المعرفة)) دراسة سيكولوجية علمية بوصفها عملية انتقال من حالة دنيا إلى حالة عليا، مستندة بذلك إلى منهج مزدوج في المعرفة هو منهج التحليل المنطقي ومنهج التحليل التاريخي _ النقدي [2].

الهدف من البحث هو توضيح طبيعة العلاقة بين الإبيستمولوجيا بوصفها اختصاصاً علمياً جديداً وعلم النفس، وما نتج عن تلك العلاقة من ولادة إبيستمولوجيا جديدة أسسها جان بياجيه، وأطلق عليها اسم ((الإبيستمولوجيا التكوينية))، التي تقوم بدراسة سيكولوجيه لطبيعة المعرفة، وكيف تنمو وتتطور المفاهيم العقلية الأساسية وفق منهج منطقي يهدف إلى الدراسة الصورية لهذا النمو بمراحله المختلفة، ومنهج تاريخي نقدي _ تكويني يهتم بطبيعة المعرفة من خلال علاقة الذات بالموضوع وعلاقة الفكر بالواقع .

منهجية البحث:

في هذا البحث تم الاعتماد على ما يسمى المنهج التكويني، الذي يقوم بدراسة سيكولوجية للمعرفة البشرية وللمفاهيم العلمية كافة، كمفهوم المكان والزمان، والعدد... الخ، وهذا المنهج مكون من قسمين أساسيين

القسم الأول: منطقي، يقوم على دراسة صورة المعرفة الإنسانية.

القسم الثاني: نقدي . تاريخي يقوم بدراسة المعرفة في علاقتها بالواقع، من خلال العلاقة الجدلية بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، ووفقاً لهذا المنهج استطاع عالم النفس جان بياجه أن يرصد وبشكل دقيق مراحل نمو المعارف البشرية وتطورها وانتقالها من الحالة الدنيا إلى الحالة العليا.

---

[1] محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم، ج1، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص 32

[2] المرجع السابق ص32

الإبيستمولوجيا التكوينية . موضوعها ومنهجها :

كرس عالم النفس السويسري جان بياجيه حياته العلمية المديدة لدراسة الكيفية التي تتكون فيها المفاهيم العلمية؛ أي الكيفية التي يتوصل فيها الطفل الإنساني عبر طفولته الطويلة إلى بناء المفاهيم العلمية((كمفهوم العدد ومفهوم السببية، ومفهوم المكان، ومفهوم الزمان ... الخ))، لهذا السبب فقد انطلق ((جان بياجيه)) من السؤال التالي: كيف تتكون المعرفة الإنسانية؟ كيف تكونت في التاريخ الإنساني؟ وكيف تتكون عند الكائن الفرد؟ أو ما هي المراحل المتتالية لنمو العملية المعرفية؟[3] . إن تحديد الكيفية التي تنمو فيها المعارف البشرية تقتضي بالضرورة منهجاً يدرس كل معرفة من المعارف من زاوية تطورها في الزمان. والمنهج التكويني يبحث في دراسة نمو المعرفة وفقاً لبنائها السيكولوجي في الواقع؛ أي دراسة المراحل المتتالية للمعرفة.[4] وفي موضوع ((المعرفة)) يرى جان بياجيه أن الخطأ الذي ارتكبه الفلاسفة في موضوع المعرفة والذي جعل آراءهم فيها تبقى عقيمة غير منتجة وغير مواكبة للتطور، هو أنهم كانوا ينظرون إلى المعرفة بوصفها واقعة نهائية كاملة وليس بوصفها عملية نمو وتطور ((processus)). لقد شغل الفلاسفة أنفسهم دوماً من أفلاطون إلى كانط بالبحث عن مبادئ أو حقائق نهائية تقوم عليها المعرفة البشرية، ولم تسلم من هذه الظاهرة المخيبة حتى العلوم الأخرى من رياضيات وطبيعيات وعلوم إنسانية كانت إلى عهد قريب تأخذ بعض القضايا المبدئية، كل في ميدانها على أنها قضايا نهائية لا يجوز الشك فيها أو الطعن في صدقها، يقول بياجيه: وبفضل تقدم العلوم لم يعد هناك من يقول بمثل هذه القضايا ((النهائية)) فجميع القضايا العلمية ((المبدئية)) قابلة للمراجعة والتصحيح، هذا من جهة ومن جهة أخرى ليست هناك ((قضايا فارغة من المعنى)) وإلى الأبد، بل هناك فقط ((قضايا فارغة من المعنى حالياً)) بمعنى أنه ليست نهائية، بل هي تنمو وتتعدل وتتطور.[5]

إن تحديد الكيفية التي تنمو فيها المعارف البشرية تقتضي بالضرورة منهجاً يدرس كل معرفة من المعارف من زاوية تطورها في الزمان، والمنهج التكويني هو المنهج الذي يبحث عن دراسة نمو المعارف وفقاً لبنائها السيكولوجي في الواقع؛ أي دراسة المراحل المتتالية للمعرفة. لهذا السبب انكب بعض علماء النفس وعلى رأسهم ((جان بياجه)) نفسه على دراسة العلاقة بين المعرفة والنمو السيكولوجي للمبادئ والمفاهيم العقلية ((كمبدأ الهوية وعدم التناقض، مبدأ السببية، مفهوم العدد، مفهوم المكان والزمان .... الخ))، وكان من النتائج المهمة لهذه الدراسات الجديدة هو قيام نوع جديد من ((نظرية المعرفة)) هو ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) التي تهتم بدراسة المعرفة دراسة سيكولوجية علمية بوصفها عملية انتقال من حالة دنيا إلى حالة عليا. وإذا كانت ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) التي أسسها جان بياجه تعتمد على ((علم النفس)) وعلى علم نفس الطفل بكيفية خاصة لمعرفة كيف تنمو المفاهيم العقلية وتتطور فهي تعتمد أيضاً على ((المنطق)) بقصد دراسة صورية لهذا النمو بمراحله المختلفة .

ولذلك كان المنهج الذي تتبعه الإبيستمولوجيا التكوينية منهجاً مزدوجاً :

* منهج التحليل المنطقي من جهة، ومنهج التحليل التاريخي . النقدي أو ((التكويني)) من جهة ثانية. وإذا كانت مهمة منهج التحليل المنطقي تتجلى في دراسة كيف تنتقل المعرفة من حالة دنيا من الصدق إلى حالة عليا منه فإنّ منهج التحليل التاريخي . النقدي يدرس كيف تترجم المعرفة ((الواقع الموضوعي)) ومن ثم علاقة الذات بالموضوع؛ ذلك

[3] فاطمة الجيوشي : فلسفة التربية، جامعة دمشق، 2006 – 2007، ص 172

[4] المرجع السابق، ص 172

[5] محمد عابد الجابري : مدخل إلى فلسفة العلوم، ص 32

لأن مشكل المعرفة ليس محصوراً فقط في مسألة الصدق المنطقي، ليس مشكلاً ثورياً محضاً، بل هو أيضاً مسألة علاقة الفكر بالواقع. من هنا فإن العمليات العقلية المنطقية والمفاهيم والمعاني الرياضية بنظر جان بياجه يجب أن تفسر تفسيراً سيكولوجياً وليس تفسيراً مثالياً أفلاطونياً[6]؛ لذلك فإن ((المنهج التكويني)) في الإبيستمولوجيا يستلزم النظر إلى المعرفة من زاوية تطورها في الزمان؛ أي بوصفها عملية تطور ونمو متصل يستعصى فيها بلوغ بدايتها الأولى أو نهايتها الأخيرة.

وبعبارة أخرى فإنه لابد من النظر إلى المعرفة ((أية معرفة)) من الناحية المنهجية نتيجة لمعرفة سابقة بالنسبة إلى معرفة أكثر تقدماً.

وباختصار فإن المبدأ الأساسي الذي تنطلق منه ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) هو المبدأ نفسه الذي تشترك فيه جميع الدراسات التي تتخذ موضوعاً لها ((النمو العضوي))، وهو أنه لا يمكن الكشف عن طبقة واقع حي، بمجرد دراسة مراحله الأولية وحدها، ولا بدراسة مراحله الأخيرة وحدها، بل بدراسة حركية لتحولاته نفسها.[7]

ويرى بياجه أن الإبيستمولوجيا تستطيع تحديد موضوعها بدقة عندما تتجاوز الإشكالية العامة والمشتركة لكافة النظريات المعرفية على الرغم من اختلافها، وهي الإشكالية التي تأخذ المعرفة بوصفها واقعاً وتنظر إليها بوصفها سيرورة وتطويراً. من هنا يمكن القول إن موضوع الإبيستمولوجيا لن يكون هو المعرفة العلمية بصفة مطلقة، ولكن بالتحديد المعرفة من حيث هي ((سيرورة))؛ لذلك فإن الإبيستمولوجيا تترك الأسئلة الفلسفية عن ((طبيعة المعرفة وإمكانها)) لكي تنتقل إلى السؤال الأهم المتعلق بكيفية نمو المعارف بصفة عامة، أو كيفية نموها في ميدان معرفة محدد بصفة خاصة. بتعبير آخر إذا كانت طبيعة المعرفة العلمية بصفة عامة لاتزال بعد مشكلة فلسفية لارتباطها الضروري بالمسائل العامة كافة، فإن ما وصفنا أنفسنا به في موقف وسط، هو أن نحدد سلسلة من المسائل الملموسة والخاصة التي تعلن عن ذاتها في الصيغة التالية: كيف تنمو المعرفة؟ وفي هذه الحالة فإن نظرية الميكانيزفات المشتركة لهذه المظاهر من النمو المدروس استقرائياً من خلال إضافة وقائع أخرى ستكون ميداناً متطوراً يجتهد بفضل تمايز متعاقب في أن يصبح علماً مستقلاً.[8]

فالإبيستمولوجيا في نظر جان بياجه هي هذا الميدان الذي يسعى حثيثاً إلى أن يتميز بوصفه علماً إنسانياً جديداً من خلال تحديد دقيق لموضوعه يتميز عن الفلسفة كلياً، هذا الموضوع الخاص به هو ((المعرفة)) من حيث هي ((سيرورة وتطور ونمو))، إضافة إلى منهج ((نوعي)) يرتبط بهذا الموضوع؛ لأن المنهج يتحدد تبعاً لموضوع العلم وهدفه[9] . فإذا كانت مهمة الإبيستمولوجيا في نظر بياجيه هي البحث عن الأشكال الأساسية للمعرفة العلمية تتبع تطورها من مستوى أدنى إلى مستوى معرفي أعلى، تكون فيه المعارف قد أصبحت أكثر علمية وموضوعية. ولبلوغ هذا الهدف يجب على الإبيستمولوجيا أن تعتمد المنهج الملائم لهذه المعرفة، والمنهج الملائم لدراسة المعرفة العلمية وتكوينها برأي بياجيه هو ((المنهج التكويني))[10] ، فما هي حقيقة هذا المنهج، وما هو دوره المعرفي؟.....

الدور المعرفي للمنهج التكويني :

---

[6] محمد عابد الجابري : العقلانية الجديدة وتتطور الفكر الرياضي، ط 2،1994، ص33

[7] PARIS, 1073, P.P18-22 J . PIAGET : 1NTRODUCTION. AL.EPISTEMOLOGEI CINTIGU ,T1,

[8] جان بياجيه : الإبيستمولوجيا التكوينية، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير، دمشق 2004، ص 18 .

[9] PIAGET . J, PSYCHOLOGIE E T EPISTEMOLOGIE , PARIS , COUTER , LG 70 , P . 34

[10] PIAGET . T, L . EPISTEMOLOGICETE SES VARIETS , OP , CIT ,PARIS ,LG , P . 12

أشرنا سابقاً إلى أن الإبيستمولوجيا تستطيع أن تحدد وتعين موضوعها . بوصفها معرفة على شكل سيرورة وتطور، ووفقاً لهذا الموضوع فإن الإبيستمولوجيا تختار المنهج الملائم لدراسة ((موضوعها)) . الذي يتضمن تطبيقات تجريبية في علم النفس التكويني، فمنهج الإبيستمولوجيا ((تكويني)) من هنا فإن جان بياجيه يسمي الإبيستمولوجيا ((بالإبيستمولوجيا التكوينية)). هذه الإبيستمولوجيا التي تستفيد من علم النفس التكويني من حيث النتائج التي يتوصل إليها من خلال دراسته لمسألة تكون الكثير من المفاهيم العلمية وتطورها. فعلم النفس التكويني يقوم بدراسة تكوينية لمفاهيم، المكان، الزمان، السرعة، وغيرها ..... وهي مفاهيم علمية فيتوصل إلى تحديد الطريقة أو الكيفية التي تتطور بموجبها هذه المفاهيم، منذ مراحل الطفولة الأولى إلى أن تصبح مفاهيم مجردة، وأن استخدام المنهج التكويني في علم النفس التكويني يساعد الإبيستمولوجيا في دراستها على تكوين مفاهيم علمية من جوانب متعددة، وذلك بالوقوف على تطور ((مفهوم ما)) منذ المراحل الأولى للطفولة إلى المراحل التي سيتم فيها نشأة الذكاء النظري، فيعطي للعالم صورة تصقل المراحل التي تمر بها نشأة ((المفهوم)) على الصعيد النفسي، فيمكنه من إدراك العقبات التي يتجاوزها هذا المفهوم وفق تقدير موضوعي للمراحل التي يكون على أي مفهوم علمي أن يجتازها، ومن تقدير موضوعي للمراحل ولفترات زمنية قد تطول قبل أن يصل مفهوم ما إلى المرحلة التي يعرفها العلم في الوقت الحاضر.

ومما لا شك فيه فإن ظهور الاتجاه المعرفي في علم النفس كان رد فعل على الاتجاه السلوكي، فقد اعترض أصحاب الاتجاه المعرفي على السلوكيين بقولهم: أن الإنسان ليس مجرد مستجيب للمثيرات البيئية التي يتلقاها، بل إن الإنسان يعمل بنشاط على تمرير المعلومات التي يتلقاها، وعلى تحليلها وتأويلها إلى أشكال معرفية جديدة، فكل مثير نتلقاه يتعرض إلى جملة عمليات تحويلية نتيجة تفاعل هذا المثير الجديد مع خبراتنا الماضية ومع مخزون الذاكرة لدينا قبل صدور الاستجابة المناسبة له، وإلا كيف يمكن أن نفسر الاستجابة المختلفة للمثير نفسه من قبل فردين مختلفين، أو من قبل الفرد نفسه في مناسبتين مختلفتين.

لقد أصبح النمو المعرفي والاتجاه المعرفي في علم النفس يحتلان مكانة مرموقة في الكتب السيكولوجية الحديثة، بل تطور هناك ما يعرف بـ ((علم النفس المعرفي)). ويمثل الاتجاه المعرفي في علم النفس أحد أهم خمسة اتجاهات معاصرة في علم النفس، كما أن النمو المعرفي هو أحد أهم عناصر السلوك المدخلي للمتعلم، والذي يجب أن يحيط به المتعلم إحاطة تامة، لما له من علاقة مباشرة بالممارسات التعليمية وخبرات التعلم التي يجب أن يتعرض لها الطلاب من جهة، ولما له من علاقة مباشرة بمفهوم الاستعداد التطوري للعلم من جهة ثانية. إن هذا الاتجاه نشأ بوصفه ردّ فعل مباشر لما يسمى بضيق أفق . سيكولوجية المثير والاستجابة، فهم أي أصحاب الاتجاه المعرفي يعتقدون أن سيكولوجيا المثير والاستجابة لا تصلح لدراسة السلوك المعقد، وأن هذا الاتجاه يغفل أن الإنسان يمكن أن يفكر ويخطط ويقرر بناءً على ما يتذكره، كما أنه يمكن أن يختار بانتقائية بين إحدى المثيرات المختلفة التي يتعرض لها. ويرى بياجه أن الدفاع هو آلة التفكير، وأن معرفة ما يدور في الذهن وتمثيله يضيف بعداً كبيراً للنمو المعرفي عند الإنسان وفهم آلياته الذهنية، وأن علم النفس المعرفي وعلم فهم تفكير الإنسان وأدواته وأسباب اختلاف معالجاته الذهنية في المواقف البسيطة والمتطورة.[11]

آليات النمو المعرفي عند بياجيه :

[11] محمد عماد إسماعيل : أضواء على حياة بياجيه، الكويت، منشورات العلوم الاجتماعية،2002 ، ص22 .

يتحدد النمو المعرفي عند بياجه من خلال فهم تطور العمليات الذهنية للطفل، ويعد بياجه أباً لما أعطاه من اهتمام ودراية لدراسة الطفل باستخدام الطريق الإكلينيكية، والأسئلة السابرة المستخدمة في سير تفكير الطفل ومعرفته، ونظراً لأن النمو المعرفي يشكل أهم عناصر الأداء المرتبط بالمرحلة الإنمائية لدى المتعلم، ويرتبط بعلاقة متينة ومباشرة بكافة الممارسات التعليمية، فإن ذلك يفرض على المتعلم أن يحيط بمعرفة التطور المعرفي وخصائصه ويتجلى الاهتمام بالنمو المعرفي عند بياجه وفق عاملين أساسيين هما:

1_ البنية المعرفية : Cognitive Structure .

2_ الوظائف الذهنية : Mental Function .

إن توضيح هذين العاملين يساعدنا في فهم آلية التطور المعرفي عند جان بياجه. فالبنية المعرفية: هي حالة التفكير التي تسود ذهن المتعلم في مرحلة من مراحل النمو المعرفي، ويفترض أن هذه البنية تنمو وتتطور مع العمر عن طريق التفاعل مع الخبرات والمواقف؛ لأن الخبرة تتضمن التفاعل ويترتب على ذلك أن الطفل كلما نما وتطور وتفاعل مع المواقف والخبرات أدى ذلك إلى تغيير في حالة البنية الذهنية المعرفية لديه؛ إذ أن كل جزء يسهم في تطور حالة البناء المعرفي الذي يملكه الطفل.

أما الوظائف الذهنية فالمقصود بها تلك العمليات التي يستخدمها الطفل في تفاعله مع متغيرات البيئة وعناصرها، والتي يعدها جان بياجه حالة عامة للنشاط الذهني، ويركز بياجه على الجانب الفطري في هذا العامل، مفترضاً أن هذا العامل يكاد يكون مستقراً نسبياً، فلا يتمحور، ولكن يتطور ويتسع وتزداد كفايته ووظيفتها[12] ، ويحدث الانتقال من مرحلة نمائية عقلية إلى المرحلة التي تليها بصورة تدريجية نامية منتظمة في نسق هرمي تشكل المرحلة الحسية الحركية قاعدته، ومرحلة العمليات المجردة قمته استناداً إلى مجموعة من العوامل أهمها:

1_ التمثل : وهي عملية تحويل أو تغيير ما يواجه الطفل من أشكال معرفية أو أشياء تناسب أبنيته المعرفية الحاضرة، أو يلائمها، فهي عملية تتم من خلال تشويه الأشياء لكي تتناسب مع ما يوجد لديه من خبرات.

2_ المواءمة : وهي عملية تحويل أو تغيير البنى المعرفية الحالية المتوافرة في خبرات الطفل وتطويرها بشكل يناسب المنبهات أو المدركات التي يواجهها الطفل.

3_ التوازن : يحد النمو المعرفي عندما يواجه الطفل موقفاً يؤدي إلى اختلال التوازن عنده، بين ما لديه من مقدرات واستراتيجيات وما يتطلبه الموقف المواجه . وهذا يضطر الطفل إلى تطوير ما لديه وإعادة تنظيم الموقف بما يتناسب والعناصر . وقد حدد جان بياجه أربع مراحل للنمو المعرفي، لكن هناك عدة اعتبارات تأتي قبل تلك المراحل وهي:

1_ تتألف كل مرحلة من المراحل الأربع من فترة تشكل وفترة تحصيل، وتتميز فترة التحصيل بالتنظيم المضطرد للعمليات العقلية في المراحل المعينة، كما تكون نقطة انطلاق مهمة للمرحلة التي تليها.

2_ كل مرحلة من المراحل تتكون في الوقت نفسه من فترة تحصيل لتلك المرحلة، ونقطة البداية التي تليها. وبهذا الشكل تكون المراحل متداخلة ومتصلة مع بعضها وليست منفصلة.

3_ إن ترتيب ظهور المراحل الأربع ثابت لا يتغير إلا أن سن تحصيل المرحلة يتغير إلى حد ما حسب تأثير الدوافع والتدريب والعوامل الحضارية والثقافية، وهذا يعني أن السنوات التي وضعها بياجيه لتحديد الفترات لا تشكل حدوداً جامدة غير قابلة للتغير.

[12] المرجع السابق، 2002، ص42 – 45 .

4_ يسير الاضطراد من مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة حسب قانون يشبه قانون التكامل، غير أن البنية السابقة تصبح جزءاً لا يتجزأ من الأبنية اللاحقة.[13]

وبعد أن استعرض بياجه هذه الاعتبارات طرح المراحل الأساسية للتطور وهي :

1_ المرحلة الحسية الحركية : في هذه المرحلة يذهب ((بياجه)) إلى القول: إنها مرحلة تمتد من ((الولادة وحتى السنة الثانية)) من العمر تقريباً حيث يكون الطفل فيها متمركزاً حول ذاته، ويصعب عليه التمييز بين ذاته والمحيط الخارجي، وفي هذه المرحلة العمرية تتصل مفاهيم الطفل بحاجاته الشخصية واهتماماته الذاتية حسية في أغلبها[14]، وتتضمن هذه المرحلة ست مراحل فرعية يكتسب الطفل خلالها المعرفة بالأشياء المحيطة في البيئة، حيث تصدر عنه ردود أفعال منعكسة في بداية هذه المراحل ((كالمص)).

2_ مرحلة ما قبل العمليات العقلية من ((سنتين إلى أربع سنوات)): تتميز هذه المرحلة بظهور الوظائف الرمزية واللغة بوصفها وسيلة تمثل المؤثرات البيئية، كما أن بمقدور الطفل في هذه المرحلة إعادة تكوين بعض الأفعال التي جرت أمامه، كما أنه يفكر تفكيراً غير منطقي، وأنه يخطئ كثيراً في تجاربه.

3_ مرحلة العمليات الحسية أو التفكير المادي من ((سن سبع سنوات إلى اثنتي عشرة سنة)): في هذه المرحلة يبدأ الطفل بالتفكير المنطقي الحسي البسيط وليس المجرد، وفي هذه المرحلة يستطيع الطفل التصنيف، والترتيب حسب الارتفاع أو حسب الألوان أو كليهما معاً.

4_ العمليات المجردة من ((اثنتي عشرة سنة إلى ما فوق)): هنا يتم التفكير بالمجردات، ويتابع افتراضات منطقية، ويعلل بناء العلاقات بين الأشياء استناداً إلى فرضيات؛ إذ يتم عزل العناصر المشكلة، ويتابع كل الحلول الممكنة بانتظام، ويصبح مهتماً بالأمور الفرضية والمشكلات الإديولوجية[15]. ومن أبرز مظاهر التطور الذي وصلت إليه الإبيستمولوجيا المعاصرة هو انتقال مشكلاتها من أيدي الفلاسفة إلى أيدي العلماء المتخصصين بما في ذلك علم النفس[16]؛ إذ انكب علماء النفس وعلى رأسهم جان بياجه على دراسة المعرفة والنمو والسيكولوجية للمبادئ والمفاهيم العقلية المتنوعة، ونتيجة لهذه الدراسات استطاع بياجه تأسيس ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) على علم النفس وخاصة علم نفس الطفولة، والتي استندت على المنهج التكويني في دراسة المعرفة دراسة سيكولوجية علمية بوصفه عملية انتقال من حالة معرفية دنيا إلى حالة معرفية عليا. فالعمليات العقلية المنطقية والمفاهيم والمعاني الرياضية يمكن من وجهة نظر ((بياجه)) أن تفسر تفسيراً سيكولوجياً، إذا أردنا تجنب تفسيرها تفسيراً مثالياً أفلاطونياً؛ أي النظر إليها بوصفها حقائق قائمة بذاتها ((مثل أفلاطون))، وإذا أردنا كذلك تجنب اعتبارها مجرد ألفاظ لغوية فإن المنهج التكويني في الإبيستمولوجيا يستلزم النظر إلى ((المعرفة)) من زاوية تطورها في الزمان؛ أي بوصفها عملية تطور ونمو متصلة يستعصي فيها بلوغ بدايتها الأولى أو نهايتها الأخيرة وبعبارة أخرى لا بد من النظر إلى المعرفة ((أية معرفة)) من الناحية المنهجية بوصفها نتيجة لمعرفة سابقة بالنسبة إلى معرفة أكثر تقدماً، وباختصار فإن المبدأ الأساسي الذي تنطلق منه الإبيستمولوجيا التكوينية هو أنه لا يمكن الكشف عن طبيعة واقع حي بمجرد دراسة مراحله الأولية وحدها ولا بدراسة مراحله الأخيرة وحدها، بل بدراسة حركية تحولاته نفسها.[17]فالأمر الإيجابي الذي تقدمه لنا ((الإبيستمولوجيا

---

[13] عبد السلام بن عبد العالي : درس الإبيستمولوجيا، المغرب، دار توبقال، 2001، ص 39 . 41

[14] ليلى داوود : الشخصية وعملياتها العقلية، منشورات جامعة دمشق، 20003 . 2004، ص 54 .

[15] محمد عماد إسماعيل : أضواء على حياة بياجه، مرجع سبق ذكره، ص66 .68 .

[16] Pla nch ero bet _ le E PISTEMOLOGIE , paris : presses , universite de France :lg70 , P . 32

[17] PARIS, 1073, P.P18-33 J . PIAGET : 1NTRODUCTION. AL.EPISTEMOLOGEI CINTIGU ,T1

التكوينية)) هو نظرتها إلى ((المعرفة)) بوصفها سيرورة، وتطوراً، ونمواً، وبهذا الشكل تتجاوز الإبيستمولوجيا التكوينية الإشكالية التقليدية للمعرفة بصورها كافة التي تعبر عنها النظريات المختلفة. فالمعرفة العلمية كما يعكسها لنا تاريخها تظهر بالفعل بوصفها سيرورة؛ إذ ليس هناك مفهوم علمي مهما كان بسيطاً لم يمر بمراحل من النمو والتطور قبل أن يصبح مفهوماً مجرداً إلى الحد الذي يمكن الاعتماد عليه بوصفه معرفة علمية نظرية عندئذٍ تكشف دراسات علم النفس التكويني الصور المختلفة التي يتم بها تكون المفاهيم العقلية عند الطفل، وتكشف أيضاً العقبات التي يجب على كل مفهوم أن يتجاوزها قبل أن يصل إلى المراحل التي يصبح فيها مفهوماً علمياً، فإن هذه الدراسات تفيد من دون أي شك التحليل الإبيستمولوجي من حيث إنها تدفعه للنظر في المفاهيم العلمية من حيث هي نتيجة للتكون والنمو والتطور، لا من حيث هي واقع معطى ثابت. وبتعبير آخر إن الإبيستمولوجيا تنظر إلى المعرفة العلمية من حيث إن لها تاريخ، وهي تقوم بتخليص البحوث العلمية من عوائق البدايات المطلقة، فنتجاوز بذلك أحد العوائق التي جعلت النظريات التقليدية في المعرفة تهتم بالمعرفة العلمية بوصفها موضوعاً لها دون أن تعكسها في حقيقتها. جعلت النظريات التقليدية في المعرفة تهتم بالمعرفة العلمية بوصفها موضوعاً لها دون أن تعكسها في حقيقتها. إن ما تفتقده النظريات التقليدية في المعرفة هو إدراكها للمعرفة العلمية من حيث إنها نتيجة للجدل والتطور، هذا ما تحاول الإبيستمولوجيا التكوينية أن تكون وتشكل وعياً به.[18]

الاستنتاجات والتوصيات:

الاستنتاجات:

1_ إن من أهم ما يميز الإبيستمولوجيا المعاصرة هو الانتقال التدريجي لمشكلاتها من أيدي الفلاسفة إلى أيدي العلماء المتخصصين بمن فيهم ((علماء النفس)).

2_ نظراً لأهمية الأبيستمولوجيا المعاصرة في تطور المعرفة البشرية انكب الكثير من المفكرين والعلماء المختصين في فروع العلم المختلفة ((رياضيات، فيزياء، علم نفس)) إلى الربط بينها وبين علومهم وتخصصاتهم على سبيل المثال لا الحصر فإن عالم النفس السويسري ((جان بياجه)) أقام علاقة مميزة بين الإبيستمولوجيا وعلم النفس أسهمت في نشوء فرع معرفي جديد يسمى ((الإبيستمولوجيا التكوينية)) .

3_ الإبيستمولوجيا التكوينية تهتم بدراسة ((المعرفة)) دراسة سيكولوجية علمية بوصفها عملية انتقال من حالة معرفية دنيا إلى حالة معرفية عليا.

4_ عندما طرح جان بياجه سؤاله الأساسي: كيف تتكون المعرفة؟ كيف تكونت في التاريخ الإنساني؟ وكيف تتكون عند الفرد؟ لم يستطع الإجابة عن هذه التساؤلات إلا وفق منهج علمي جديد وهو ((المنهج التكويني)) الذي يبحث في دراسة ((نمو المعرفة)) وفقاً لبنائها السيكولوجي في الواقع؛ أي دراسة المراحل المتتالية للمعرفة.

5_ يرى بياجه أن الخطأ الذي ارتكبه الفلاسفة في موضوع ((المعرفة)) والذي جعل آراءهم فيها عقيمة، غير منتجة، وغير مواكبة للتطور، هو أنهم كانوا ينظرون إلى المعرفة بوصفها واقعة نهائية كاملة، وليس ((بوصفها عملية نمو وتطور)).

6_ يؤكد بياجه أن جميع ((القضايا العلمية المبدئية)) قابلة للمراجعة والتصحيح وليس هناك قضايا ((فارغة من المعنى)) وإلى الأبد، وقد يأتي يوم يكشف فيه العلم عن معاني هذه القضايا.2002/02/07

[18] محمد وقبري : ما هي الإبيستمولوجيا، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1983، ص 204 .

7_ يرى بياجه أن ((الإبيستمولوجيا)) علم كبقية العلوم الأخرى، لها موضوع محدد ومنهج وهدف أو غاية، فموضوع الإبيستمولوجيا هو المعرفة العلمية من حيث هي سيرورة، أما منهجها فهو ((المنهج التكويني)) الذي ينظر إلى المعرفة بوصفها عملية تطور ونمو ومتصلة أما الهدف منها فهو البحث عن حقائق الأمور العلمية.

8_ بمساعدة الإبيستمولوجيا ومن خلال صلتها بـ ((علم النفس)) تكون الاتجاه المعرفي في علم النفس بوصفه رد فعل على ((الاتجاه السلوكي)) الذي لا يرى في الإنسان سوى مجرد مستجيب للمثيرات البيئية التي يتلقاها.

9_ إن الاتجاه المعرفي في علم النفس يحتل مكانة مرموقة في الكتب السيكولوجية الحديثة والذي أدى ظهور ((علم النفس المعرفي))، وأن الاتجاه المعرفي في علم النفس أحد أهم خمسة اتجاهات معاصرة في علم النفس.

10_ إن المنهج التكويني في الإبيستمولوجيا ينظر ((المعرفة)) من زاوية تطورها في الزمان؛ أي بوصفها عملية تطور ونمو ...

التوصيات :

1_ أهمية الإبيستمولوجيا ومختلف العلوم بما فيها علم النفس.

2_ باعتبار أن لكل موضوع منهجاً محدداً فيجب الاهتمام بالمنهج المناسب والدقيق لموضوع البحث.

3_ من أهم المناهج المستخدمة في الوقت الحالي هو ((المنهج النقدي التاريخي)) ((التكويني))، والذي يؤدي دوراً مميزاً في تطور المعرفة من خلال دراستها سيكولوجياً.

4_ يجب الانتباه إلى أهمية العلاقة التي تربط بين الإبيستمولوجيا وعلم النفس نظراً لما تقدمه الإبيستمولوجيا في هذا المجال؛ إذ قدمت ((نظرية معرفية)) في علم النفس، وهي نظرية مضادة للنظرية السلوكية، التي تقوم فقط على علاقة بين المثير والاستجابة.

5_ إن إدخال نظرية معرفية جديدة في دراسة ((شخصية الإنسان)) كان لها أثر بالغ في الدراسة العقلية والمعرفية لدى الإنسان.

المراجع:

1_ إسماعيل، محمد عماد، *أضواء على حياة بياجيه*، الكويت، منشورات العلوم الاجتماعية،2002 .

2_ بياجيه، جان، *الإبيستمولوجيا التكوينية*، ترجمة السيد نفادي، دار التنوير، دمشق 2004

3_ الجابري، محمد عابد، *مدخل إلى فلسفة العلوم*، ج1، دار الطليعة، بيروت، 1982 .

4_ الجابري، محمد عابد، *العقلانية الجديدة وتتطور الفكر الرياضي*، ط 2،1994

5_ الجيوشي، فاطمة، *فلسفة التربية*، جامعة دمشق، 2006 – 2007

6_ داوود، ليلى، *الشخصية وعملياتها العقلية*، منشورات جامعة دمشق، 20003 . 2004

8_ عبد العالي، عبد السلام بن، *درس الإبيستمولوجيا*، المغرب، دار توبقال، 2001

9_ محمد وقبري، *ما هي الإبيستمولوجيا*، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1983
10_ PLANCHE ROBERT, *le Epistemologie*, PARIS: presses, universities de France:lg70
11_ PIAGET, J. *1ntroduction. Al.Epistemologei Cintigu*,T1,Paris, lg70
12_ PIAGET . J. *Psychologie E T Epistemologie*, PARIS, COUTER, LG 70
13_ PIAGET . J. *L . Epistemologicete Ses Variets , Op , Cit*, PARIS ,LG